مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد 14، العدد 53 (شتاء 2003)، ص 134

فيرا تماري*

الشهيد محمد سعدات**

عزيزتي إصلاح،

كم أفتقدك في هذه الأيام المأساوية بالذات بعد الاغتيال الوحشي لمحمد [سعدات]، جارنا الشاب اللطيف [....]. لا أستطيع أن أستوعب الوحشية التي رأيتها بأم عينيّ، أو أتصورها.

كانت الساعة السادسة عصراً، وكنت كعادتي في تلك الساعة أستمتع بشرب قهوتي اليومية على الشرفة [....]. فجأة سمعت صوت إطلاق نار وصراخ ناديا، ممرضة أمي الشابة: "لا! لا!". كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما ووجهها بين كفّيها، وهي تحدّق صوب محل الزهور في الشارع حيث تسكنين.

لم أشاهد في الواقع محمداً في أثناء مقتله، لكنني شاهدت كل التحركات المخيفة للقوات الإسرائيلية الخاصة، وطريقة ترجُّل الجنود من الشاحنة داكنة اللون ذات النوافذ الدخانية، وكيف اعتمروا بسرعة قبعات قوات الشرطة الخاصة واتخذوا مواقعهم حول محل الزهور شاهرين مسدساتهم، وإطلاق النار، وجرح شخص معهم يرتدي قميصاً أزرق فاتحاً خلافاً للقمصان الداكنة التي يرتديها أفراد القوات الخاصة – عرفت لاحقاً أن جروح هذا الشخص نجمت عن رصاصات أطلقها محمد – وكيفية دخولهم "حاكورة" أم عمر (هندومة) للحاق بمحمد وقتله بدم بارد، والتعزيزات التي وصلت إلى مكان الحادث، ونقل الجريح الذي ينزف من جانبه بسيارة إسعاف تابعة للجيش. لا أزال أذكر كل هذه التفصيلات المقزّزة كما لو أنها تحدث الآن، ويقشعر بدني! شاهدت علاء، ابن وفاء، في الشارع الرئيسي، وكان وجهه شاحباً من هول الصدمة.

ناديته مستفسرة: "ماذا حدث يا علاء؟"

(*) فنانة ومحاضرة في جامعة بير زيت.

(**) النص عبارة عن رسالة كتبتها تماري بالإنكليزية إلى صديقتها إصلاح جاد بتاريخ 2002/8/25. والشهيد هو شقيق الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، أحمد سعدات.

فأجابني متجهّماً: "إنه محمد، لقد رحل!"

قلت له: أنت مخطئ، فقد شاهدت الرجل الذي نقلوه بسيارة إسعاف تابعة للجيش ولم يكن محمداً. هز رأسه. لعله كان يريد تصديق قصتي، لكنه كان متأكداً من حقيقة مقتل محمد المؤلمة. كيف عرف علاء بهذه السرعة ما حدث حقاً؟

كنت اتصلت بسيارة إسعاف تابعة للهلال الأحمر عند رؤية الرجل الجريح وهو ينزف ممدداً على الطريق. أخبرتهم بما جرى، وطلبت منهم الإسراع والحذر نظراً إلى وجود القوات الخاصة وحدوث إطلاق نار كثيف. حضرت سيارة الإسعاف على عجل، لكنها أُمرت بالرجوع من حيث أتت، لأن الشارع بأكمله كان خاضعاً لسيطرة الجيش، الذي بعد أن أتم عمله انصرف – كما يفعل المجرمون – بدقة ومن دون خوف.

بعد خروج الجيش من المكان، أخذ الجميع يركضون نحو "حاكورة" أم عمر بلا تردد، وأسرعت أنا أيضاً. وفي الطريق أخذت أسمع نحيب النسوة، وأصوات رجال يصيحون: "لا إله إلاّ الله". الأمر صحيح إذاً، قلت لنفسي، وبدأت أشعر بانقباض أحشائي من الخوف لهذا الإدراك، وبغصّة في حلقي. لقد قُتل محمد حقاً – بات شهيداً.

هذا التحول المفاجئ مرعب جداً: في لحظة كنتَ يا محمد حياً وعادياً، وفي لحظة تلت صرتَ ميتاً، ورُفعت لتتساوى بالصدّيقين والشهداء وتنعم برفقتهم في الجنة!

وصلتُ إلى هناك في الوقت المناسب لأراهم يحملون محمداً على محفّة، مغطى بملاءة بيضاء، ويدخلونه سيارة الإسعاف. ساد الكثير من الهرج والمرج – وجوه ارتسمت عليها علامات الأسى واللوعة، وشبان يصيحون، ونساء يَنُحْنَ. كان ماهر وصالح وأبو صالح هناك يترنحون من هول الصدمة، لكنهم مع ذلك يحاولون المساعدة وتخفيف الفوضى ما أمكن، وربما إشاعة شيء من الرشد في هذا الكابوس غير المعقول. وسمعت شباناً يصيحون: "توقّفوا! لا تقذفوا حجارة! نظرت إلى أعلى التل، وشاهدت سيارة جيب عسكرية تنتظر وتراقب.

لم أبكِ في البداية، لكن شعوراً خانقاً استحوذ عليّ. ارتجفت، وشعرت بدوار وضعف. وعندما عدت إلى البيت، أخذت أعيد تركيب تفصيلات إطلاق النار مما شاهدته وأنا على الشرفة. وتخيلت أيضاً ما لم أتمكن من مشاهدته، لكنني سمعته من أم نعيم التي رأت عن قرب كل ما جرى، من بيتها الذي يشرف على دالية أم عمر، حيث سقط محمد جريحاً في ساقه، وتخيلت كيف قفز الجنود الإسرائيليون وداسوا صدره وأطلقوا النار

على رأســـه وعلى مقربة من قلبه. بعد إنجاز العمل، تفحص جندي آخر من ســـيارة إسعاف تابعة للجيش، ربما كان طبيباً، نبض محمد في رقبته. تمت المهمة، فانسحبوا إلى سياراتهم وغادروا.

عزيزتي إصلاح، [....] هل تصوّرتِ يوماً أن حيّنا المسالم الهادئ سيصبح مسرحاً لمثل هذا العنف المتكرر في السنتين الأخيرتين؟ أذكر بوضوح غريب قصف مروحيات الأباتشـي لمركز الشـرطة المجاور عند بداية الانتفاضـة في 13 تشـرين الأول/أكتوبر 2000، وارتجاج بيتنا بعنف من شدة الانفجارات، ودمار مبنى الشرطة بكامله.

ثم جاء مقتل أم نائل، الأم التي أُطلقت النار عليها وقضـت في الشـارع الرئيسـي، عند الطريق إلى بيتنا، بينما كانت هي وزوجها عائدين إلى البيت بعد التســوّق لعيد الفطر. حدث ذلك في شـهر رمضـان حيث كانا والمارة الآخرون يسـرعون إلى منازلهم للإفطار. قُتلت على الفور برصاصة نتيجة إطلاق نار كثيف مفاجئ من بسغوت – تلك المسـتعمرة التي زُرعت وسـط البيرة فوق جبل الطويل على بعد 3 كيلومترات منا. كنت في مكتبي آنذاك حيث كان في وسعي أن أرى من نافذتي الرصاصات الحمر القاتلة في طريقها نحو منطقتنا، على نحو شـبيه بالمروحة. ثم سـمعت صـرخة تلتها همســات مكتومة، وشـاهدت حشداً صـغيراً من الناس ينحني فوق جسد ممدد على الأرض قرب بوابتنا الأمامية. وسـرعان ما نُقل المصـاب إلى المسـتشـفى بسـيارة أجرة كانت مارة بالمكان. عرفنا لاحقاً أن من أصـيب كان امرأة، أُماً لثلاثة أولاد صـغار، وأنها ماتت على الفور متأثرة بجروحها. وأصـيبت في تلك الحادثة نفسـها جارتنا وفاء وابنتها نادين، التي تبلغ من العمر 12 عاماً، بشـظايا طلقة. لم تكن الإصـابة خطرة، لكنها كانت كافية لتهز الجميع. وأذكر أنني كنت أستطيع لعدة أيام أن أرى شكل محيط جسد المرأة المسكينة مرتسماً على رقعة من إبر الصـنوبر الجاف قرب البوابة التي سـقطت عندها.

هل تدركين يا إصـلاح كم تكاثرت الأحداث العنيفة حول حيّنا، الذي كان هادئاً ذات يوم، منذ إعادة احتلال رام الله في آذار/مارس 2001. أولاً كان دوي الانفجارات الذي لا يُطاق، والناجم عن قصف طائرات ف – 16 للمقاطعة المحاصرة، التي لا تبعد عنا سوى بضـع مئات من الأمتار؛ ثم منع التجول الشـامل والصـارم، وكنا نختبئ في ركن من أركان منزلنا نعتقد أنه الأكثر أماناً، بعيداً عن النوافذ فيما لو حطمت الانفجارات زجاجها. ولعدة أيام، شـلَّنا الخوف من الانفجارات، وطلقات المدافع

الرشاشة العشوائية، وطلقات القناصة من المباني العالية المحيطة. وكان علينا أن ننقل في أوقات غريبة من الليل والنهار أمي المسكينة، البالغة من العمر 90 عاماً، وغير القادرة على الانتقال من غرفة إلى أُخرى لتجنّب خطر التعرض للإصابة. وقد تحطم زجاج نافذة على درج منزلنا برصاصة قناص. ولم نجرؤ طوال الوقت على الخروج إلى الشرفة أو الاقتراب من أي نافذة، خوفاً من أن نُرى ونُستهدف! وكان هناك الصوت المخيف الدائم لدبابات "ميركافا" الإسرائيلية الهائلة، ولناقلات الجند التي تجوب الطرقات ليل نهار. كانت تشق طريقها ببطء ومدافعها مصوَّبة بشكل تهديدي، وتترك جنازيرها آثاراً عميقة في الأسفلت.

هل تذكرين كم عدد أسوار الحدائق في جوارنا مباشرة التي دمرتها هذه الدبابات أو الجرافات العسكرية البشعة بشكل متعمد؟ كان هناك بوابة حديقة جارتنا جميلة (أم جوده) وسورها، وجدار "سويفت هاوس" الذي يؤدي إلى حديقة النباتات، وجدار ملعب كرة القدم المواجه لنا – وكلا الجدارين تابع لمدرسة "الفرندز" للبنين، وسور حديقة وفاء أمام محل الزهور، وحائط حديقة هندومة (أم عمر) قرب منزلك، وكان التدمير يخلف أكواماً مخيفة من الردم والغبار. لقد جرفوا الأرصفة، وحفروا الشوارع. بل إنهم اقتلعوا بعض أشجار السرو القديمة التي يبلغ عمرها نحو 100 عام، والتي كانت قائمة قرب مقر جمعية الشبان المسيحيين (YMCA)، لإغلاق الطرق فحسب، ومنع الوصول إليها، حتى على رجال الصحافة الذين يأتون لتغطية الأحداث في رام الله! وفي أية حال، لم يكن في وسعنا طبعاً استخدام الشوارع لأننا نخضع لحظر التجول منذ أشهر، ويتعين علينا المشي، لا ركوب سياراتنا. وعندما يُرفع منع التجول لفترة وجيزة، كنا نتسلق الحطام وكل الفوضى التي خلّفها الاحتلال وراءه للوصول إلى مقاصدنا.

في هذا المزاج الذي تسوده نزعة لا هوادة فيها إلى التدمير، كانت الدبابات تسحق السيارات أيضاً – أي سيارة يصادَف وجودها على الطريق الرئيسي. وتقدّر الأرقام الرسمية أن نحو 700 سيارة دُمرت تدميراً كاملاً في رام الله والبيرة خلال الفترة الممتدة بين آذار/مارس وأيار/مايو 2002. وقد عددت ذات مرة 10 سيارات مسحوقة في شارعك وشارعي فقط، بينها سيارة ليزا القديمة الحمراء من طراز فولكس فاغن (الخنفساء) التي باعتها إلى أحد أبناء أبي نحلة؛ لقد سُوّيت تماماً بالأرض، وقُلبت على ظهرها – مثل خنفساء ميتة تماماً.

رافَقَنا الخوف والرعب والدمار خلال هذه الأشهر الطويلة منذ آذار/مارس. لقد حوصر حيّنا وفُتش عدة مرات – وحدات كبيرة من الجنود تخبط الأبواب، وتفتش، وتقلب الأثاث، وتخلط المواد الغذائية، وتستخدم سكان الحي دروعاً بشرية قبل أن تقتحم المباني أو الشقق. هل تذكرين آخر مرة حدث ذلك، قبل نحو 5 أسابيع، عندما اقتادوا شاباً من الحي معهم كي "يحميهم" في أثناء قيامهم بمهمتهم القذرة، وأجبروه على أن يطلب من كل سكان البناية السكنية عند ناصية الشارع الخروج من منازلهم. كانت الساعة الثانية صباحاً، وكنت أستطيع أن أرى من خلف الستائر رتل النساء والأطفال أولاً ثم الرجال، 4 أو 5 فقط، وهم يخرجون رافعين أيديهم فوق رؤوسهم ويؤمرون بقسوة بالجلوس على الرصيف. تجمعت النسوة والأطفال معاً في صمت مطبق – يقطعه بين الحين والآخر بكاء طفل وصوت أمه وهي تسكته على عجل. استغرق تفتيش الشقق وتدقيق الهويات عدة ساعات، حتى وقت مبكر من الصباح. لو كنت أعلم يا إصلاح أنك مستيقظة أيضاً، وأنك كنت تسترقين النظر إلى ذلك المشهد عبر ستائرك في الوقت نفسه، لربما كنت هاتفتك لأحظى ببعض الاطمئنان إلى أنني لست الوحيدة التي تشاهد ذلك المنظر المذل.

من حسن الحظ أن الوحدة الإسرائيلية التي فتشت منزلنا ذات يوم في جوف الليل كانت لا بأس بها، لكن مجرد رؤية الجنود يعتمرون خوذهم ويرتدون عدة القتال الكاملة عند باب غرفة الجلوس في منزلنا، وهم يفتشون كل المنزل بحرية، جعلتني أرتعد. إن هذا الانتهاك لخلوتنا، وهذه الهالة من الرعب التي جلبوها معهم، هما وحدهما إساءة خطرة لحقوقنا الإنسانية!

أستطيع الاستمرار في السرد – لكن موت محمد بهذه الطريقة الوحشية جعل كل القصص المروعة التي شهدتها أنا، وأنت طبعاً، في حدود حيّنا الصغير الضيقة، تبدو تافهة. لقد كان محمد شاباً – في الثانية والعشرين من العمر على ما أعتقد. وكان هادئاً ومحترماً ومحبوباً جداً من رفاقه، ومن كل من جاء إلى دكان البقالة الصغير الذي يملكه لابتياع حاجاته. كان هناك دائماً سيل من الأطفال الصغار الذين يحملون النقود في أيديهم لشراء العلكة أو الشوكولاته أو السكاكر. وكان صبوراً جداً معهم، وترتسم على وجهه أعذب الابتسامات.

ربما كان محمد ناشطاً – بطريقته الحذرة الخاصة – والناس ذكروا شيئاً عن ذلك

بطريقة ما، لكنه لم يؤذ أحداً. جاءت القوات الخاصة الإسرائيلية عصر ذلك اليوم المشؤوم لقتله (لا لاعتقاله كما ادعوا في البداية)، وهذا ما فعلوه؛ لقد صفّوه.

ارتفع بطل وشهيد في حي راس الطاحونة – حيّنا. ووُضع حي راس الطاحونة على خريطة التضحية والفداء، وصار المكان المفضل لأطقم التلفزة وسيارات الصحافة لعدة أيام. وتوافد المعزّون، بعضهم يهنّئ أم محمد على استشهاد ولدها. وعندما دخلتُ لأعزّي انهمرت الدموع من عينيّ، فنهرتني أم محمد قائلة: "يجب ألاّ تبكي على شهيد. محمد في السماء مع الصدّيقين."

ليس من السهل عليّ أن أستوعب كلمات أمه. فمحمد بالنسبة إليّ يبقى دائماً ذلك الولد العادي اللطيف في حيّنا، لا بطلاً ولا شهيداً، بل ولداً عادياً لطيفاً. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar/mdf